المحاضرة السادسة: شعر النقائض

أولا: مفهوم النقائض

1-لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة نقض ما يلي:

نقض: النّقض: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، وفي الصحاح النقض نقض البناء والحبل والعهد، غيره النقض ضد الإبرام، نقضه ينقضه نقضا وانتقض، والنقض اسم البناء المنقوض إذ هَدِمَ.

وفي حديث صوم التطوع: فناقضني وناقضته، هي مفاعلة من نق البناء وهي هدمه، أي ينقض قولي وأنقض قوله، وأراد به المراجعة والمرادة وناقضة في الشيء مناقضة ونقاضا، خالفه، قال:

وكان أبو العيوف أخا وجارا وذا رحم فقلت له نقاضا.

أي ناقضته في قوله وهجوه أيّاي.

والمناقضة في القول أن يتكلم بما يتناقض معنها والنقيضة في الشعر ما ينقض به وقال الشاعر: إني أي الدهر ذا نقض ومرار، أي ما أمر عاد عليه فنقضه، وكذلك المناقضة في الشعر، ينقض الشاعر الآخر ما قله الأول، النقيضة الاسم تجمع على النقائض ولذلك قالوا: نقائض جرير والفرزدق:[1]

ما يمكن ملاحظته من خلال تتبع الجذر اللغوي لمادة نقض حسب ما جاء في لسان العرب أنها تمثل المعنى المادي الذي نعنى به نقض البناء أي هدمه وتحطيمه، والنقض أي أثار وحطام وبقايا البناء المنقوض، ثم المعنى المعنوي في نقض العهود والمواثيق، وفي نقض القول أي مخالفته ونفيه والإتيان بما يعاكس معناه، من هنا أصبح الشعر ميدانا للنقض فاصطلح على تسميته بشعر النقائض.

[1] – ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، دار صادر، بيروت–لبنان، ط: 04، 2005م، مج:14، مادة (نقض)

2-اصطلاحا:

مصطلح النقائض من المصطلحات التي ذاع صيتها في الدرس الأدبي العربي وبلغت شـهرتها شـهرة المعلقات التي قيلت في العصـر الجاهلي، وهي جنس أدبي نعني به أن ينظم شـاعر ما قصـيدة في هجاء خصـمه، فيعمد الآخر إلى الرّد عليه يشـعر مماثل ملتزما نفس البحر والقافية والروي الذي اختاره الشاعر الأول، وهذا يعني الوحدة في الموضوع سواء أكان فخرا أو هجاء، أي أن الشاعر الثاني يضع نصب عينيه أن يفسد على الشاعر الأول معانيه ويهدمها وينقضها فإن كانت هجاء ردها عليه وزاد مما بعرف أو يخترع، وإن كانت فخرا كذّبه وجعله لصالحه.

إضـــافة إلى وحدة الموضـــوع وتقابل المعاني لا بد من وحدة الشـــكل الذي يجمع بين النقيضـتين، كذلك لا بد من وحدة النغمة الموسيقية المتكررة في آخر القصـيدتين وهي الروي وكأن الأمر يشبه نزال بطلين في الميدان بنفس الأسلحة إذا هاجم الأول تصدى له الثاني في الدفاع والعكس، وما يزيد في لذة وإثارة هذه المبارزة كونها مبارزة قولية، ومعركة كلامية وقديما قيل: جرح الكلام أبلغ من جرح الحســام، ولهذا نجد بعض الباحثين مثل: "أحمد ســيد محمد" يتجه إلى تسمية هذا النوع من الشعر بـ: قصيدة المباريات.*

و«النقيضــة قصـيدة يرد بها شـاعر على قصـيدة لشـاعر خصـم فينقض معانيها عليه ويقلب فخر خصـــمه إلى هجاء، ثم ينســـب الفخر الحق على زعمه إلى نفســـه هو، وتكون النقيضــة عادة من بحر قصـيدة الخصـم وقافيتها ورويها تبعا للإيقاع الموسـيقي للقصـيدتين والذي يدفع الشــاعر الثاني إلى متابعة الشــاعر الأول في هذا إلى إظهار تفوقه عليه بما في ذلك القصيدة نفسها».[2]

---

* – ينظر: أحمد سيد محمد، نقائض ابن المعتز وتميم ابن المعز، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط: 2، ص1980م.

[2] – أبو عبيدة محمد بن المثنى، ديوان شـرخ نقائض جرير والفرزدق، شـر، تع: محمد التونجي، دار الجيل، بيروت–لبنان، ط: 2، 2002، ج1، ص ص: 12–13.

ثانيا: المسار التاريخي لشعر النقائض

النقائض من الفنون الشعرية القديمة، التي تعود جذورها إلى العصر الجاهلي وإن لم تسم به مصطلحا، فكانت تسمى أحيانا بـــ "المنافرة"* وأخرى "بالمفاخرة"** وما إلى ذلك من أشكال النفار، فقد كان الشعراء يتقاذفون بالشعر كما يتقاذفون بالسهام، وكان لكل قبيلة شاعرها الناطق باسمها يتولى مهمة الدفاع عن قبيلته وأفرادها والتقليل من شأن القبائل المعادية، من هنا بدأت تتكون نواة هذا الفن من خلال غرضي الفخر والهجاء، وهذا ما أكده الدكتور أحمد الشايب في تأريخه لفن النقائض: «فن جاهلي قديم، نشأ مع النهضة الشعرية طفلا ناقص الأركان ثم استكمل أركانه وعناصره معتمدا على فن الفخر والهجاء، بل إن هذا العنصر عرف فن النقائض في صورته الناضجة...».[3]

وغير بعيد عن هذا الرأي نجد الدكتور أحمد سيد محمد يؤكد لنا بدوره على أن نواة هذا الفن قد وجدت منذ العصر الجاهلي «ربما تجمعت في بعض قصائد الشعر الجاهلي عناصر من خصائص هذا الفن وربما اكتملت صورتها في قصائد أخرى، إذا أحس الشاعر بفطرته أن استخدام السلام الذي هوجم به في الرد على خصمه أبلغ تأثيرا فراح يفخر على أعدائه ويهجو خصومه مقلدا البناء النفي للقصيدة التي أنشأها غريمه، وبذلك تكونت نواة هذا الفن في العصر الجاهلي».[4]

كما يذهب الدكتور شوقي ضيف المذهب نفسه محاولا التأكيد على أن الهجاء الجاهلي قد مثل نواة هذا الفن في قوله: «والهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية وقد

---

* – المنافرة: هي مفاخرة فيها تحكيم، قال أبو عبيدة: المنافرة أن يفتخر الرجلان كلاهما على صاحبه يم يحكمان رجلا بينهما.

** – المفاخرة: غرض هام من أغراض الشعر والخطابة في الجاهلية والإسلام، فيها يعدد الشاعر مآثره الحميدة أو مآثر قبيلته ، ينظر: أحمد سيد محمد، نقائض ابن المعتز وتميم ابن المعز، ص: 23.

[3] – أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1946، ص: 46.

[4] – أحمد سيد محمد، نقائض ابن المعتر وتميم ابن المعز، ص: 31.

أوجدته المنافســات القبلية على مياه الغبرات والمراعي، كما أوجدته الحروب المســتمرة، بين القبائل وبطونها وغصونها، فكانوا يقتتلون، وكانوا يتهاجون هجاء مرا».[5]

وبامرئ القيس وعنترة وزهير...، «فالنقائض التي اشــتهرت في تاريخ الشــعر الأموي ليســـت إلا مناظرات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة... وأنها فن أموي غذته وطورته هذه البيئة الجدلية، بيئة العراق وما انبث فيها من طرق حوار واســـتدلال في كل شـــيء، وهو حوار واستدلال لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير وتناول كل منهما قبسا منه ألفا على ضوئه هذه النقائض وســـرعان ما أقبل الأخطل يشـــاركهما في هذا الحوار أو قل هذه المناظرات وسيبعث فيها جانبا جديدا من المفاضلة بين قيس وتغلب».[6]

فالدكتور شوقي ضيف يقصد من خلال هذا الكلام؛ أن البيئة الأموية وما حوته من مستجدات قد صقلت هذا اللون من الشعر وغذته حتى أصبح فنا أمويا خالصا.

ثالثا: أسباب نشأة وازدهار شعر النقائض في العصر الأموي

يرجع ســـبب انتعاش هذا الفن وازدهاره في الحقبة الأموية بالذات إلى عوامل كثيرة ومتعددة يمكننا تصنيفها إلى قسمين: أسباب خاصة تتعلق بالخصومة التي نشبت بين الشعراء، وأخرى عامة تتعلق بالظروف السياسية والاجتماعية والعقلية في عصر بني أمية.

1-الأسباب الخاصة:

تتمثل الأسباب الخاصة التي أشعلت فتيل هذه المعركة الشعرية والتي تذكرها كتب التاريخ الأدبي في احتدام الهجاء بين الشـاعر جرير ومجموعة من الشـعراء، ويحكي جرير للحجاج قصـــة النقائض، يبرر فيها دره على الشـــعراء الذين بدأوا بالهجاء، ويعدد أســـماء معظمهم وما قالوه من قصائد ورده عليهم، فبدأت الخصومة بين جرير وشاعر يدعى غسان السليطي[7].

---

[5] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، دار المعارف، القاهرة– مصر، ط:09، (دت)، ص: 162.

[6] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص: 81.

[7] – المرجع نفسه، ص ص: 176-177.

وكان آنذاك راعيا للإبل فقال قصيدة يهجو بها جريرا مطلعها:[8]

لمرو لئن كانت بجيلة زانـــــها جرير لقد أخزى كليبا جريـــرها

رميت نضالا عن كليب فقصرت مراميك حتى عاد صفرا جفيرها

فأجابه جرير بنقيضة يقول فيها:[9]

ألا ليت شعري عن سليط ألم تجــد سليط سوى غسان جرا يجيرها

لقد ضمنوا الأحساب صاحب سوءة يناجي بها نفسا لئيما ضميرها

«فكانت هذه أول معارك الهجاء التي خاضـــها جرير وعلى إثرها اشـــتهر اســـمه وذاع».[10]

ثم ساقت الظروف شاعرا آخر لساحة المعركة يقال له البعيث* المجاشعي الذي أخذ يتعرض بشــعره لبني يربوع رهط جرير لأن جماعة منهم ســرقوا إبله ثم ردوها معتذرين فنظم هذا الشاعر قصائد يهجو بها قبيلة كليب وأخرى يهجو بها شاعرهم جرير ومن ذلك قوله:[11]

أليست كليب ألأم الناس كلهم؟ وأرنت إذا عدت كليب لئيما

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير وقد أعيا كليب قديمها

فيرد عليه جرير:[12]

أنا الذائد الحامي إذا ما تخمطت عرانين يربوع وصالت قرومها

دعوا الناس إني سوف تنهى مخالتي شياطين يرمى بالنحاس رجيمها

---

[8] – محمد مصطفى أبو شوارب، أدب العصر الأموي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية–مصر، ط:1، 2007، ص: 104.

[9] – مهدي محمد ناصر الدين، شرح ديوان جرير، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، د.ط، 1995، ص: 217.

[10] – مصطفى أو شوارب، أدب العصر الأموي، ص: 104.

* – كان البعيث شــاعرا فاخرا الكلام حر اللفظ، وقد غلبه جرير وأخمله، وكان قد قاوم في قصــائد ثم ضــج إلى الفرزدق واستغاثة، ينظر: محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 2/ 535.

[11] – ببن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء،2/ 386.

[12] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 414.

ولم يستطع البعيث مقاومة هجاء جرير وصده، بينما استمر هذا الأخير في تحرشه بالبعيث وبشعراء مجاشع الذين ناصروا البعيث فأسقطهم شاعرا شاعرا، وهذا ما يرويه «الأصمعي عن جرير: كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحدا واحدا، وثبت له الفرزدق والأخطل».[13]

حينئذ لجأ البعيث إلى الفرزدق وأثار غيرته على قومه وأعراض قبيلته التي فضحها جرير، وكان الفرزدق يومئذ بالبصرة وقد قيد نفسه وآلى لا يفك قيده حتى يقرأ القرآن فقال البعيث:

لعمري لئن ألهى الفرزدق قيده ودرج نوار ذو الدهان وذو العسل

ليبتعثن مني عداة مجاشع بديهة لأواني الجراء ولا غول

فقال جرير:[14]

جزعت إلى درجي نوار وغسلها فأصبحت عبدا ما تمر وما تحلى

من هنا بدأت قصة الهجاء بين جرير والفرزدق حسب ما ترويه كتب التاريخ الأدبي وقد ظلت معركة الهجاء محصورة بينهما، إلى أن انضم شاعر ثالث لساحة المعركة مدفوعا من بشر بن مروان الذي حرّض الأخطل على أن يحكم بين الفرزدق وجرير أن يفضل الفرزدق على هذا الأخير، فاستجاب الأخطل لطلبه مما أوغل صدر جرير عليه وثارت بينهما معارك هجاء طاحنة وهذا ما يرويه ابن سلام فيقول: «قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان فبعث إليه محمد بن غميرة بن عطارد بن حاجب بن زرارة بدارهم وجملان وكسوة وخمر وبلغني أن الذي بعث بهذا شبّة ابن عقال المجاشعي وقال للأخطل: فضل شاعرنا عليه وسبّه، فقال الأخطل

أخسأ كليب إليك: إن مجاشعا وأبا الفوارس نهشلا أخوان

---

[13] – خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط: 1، 2007، ص: 62؛ وأخذ صاحب الكتاب من الأغاني للأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1986، ج8، ص: 229.

[14] – ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، 2/386-387.

قوم إذا خطرت إليك قرومهم جعلوك بين كلاكل وجران».[15]

فيجيبه جرير ساخطا:[16]

يا ذا العباءة إن بشرا قد قضى أن لا تجوز شهادة النشوان

فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بني شيبان

ونجد الدكتور شـــوقي ضـــيف يرى أن المعركة بين جرير والأخطل كانت ســـتقع لا محالة سواء أثارها بشر بن مروان أم لم يثرها، وأن هذا القضاء ما هو إلا سبب عارض في التحام التهاجي بينهما، أما السبب الرئيسي فيرجع إلى العداء الموجود بين قبيلتي تغلب وقيس «غير أننا نزعم أن هذه النقائض إنما استطارت بين الشاعرين بحكم موقف جرير في صف قيس، وقد تكون حادثة بشـــر صـــحيحة ولكن ينبغي أن لا نجعلها كل الأســـباب في اندفاع الشاعرين إلى التهاجي فوراءها سبب أعمق في موقف الشاعرين لهذا العصر من الخصومات القبلية، إذ كان الأخطل لسان قومه تغلب، بينما اتخذت قيس في المربد جريرا لسانها، فكان من الضروري أن يصطدم اللسانان المعبران عن الطرفين».[17]

2-الأسباب العامة:

أ-الأسباب السياسية:

لقد كان ضـــمن خطط الأمويين للســـيطرة على الأوضـــاع هي إغراق أهل الحجاز بالأموال والجواري والعبيد، وتشجيع الغناء والمجون بغية إرضائهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خططوا لإثارة العصـــبيات القبلية وإشـــعال فتيلها بعد أن أخمد الإســـلام نارها، فأثاروا عصبية العرب ضد العجم والموالي، وعصبية العدنانية ضد القحطانية، وعصبية بني أمية

[15] – المرجع نفسه، 2/ 452.

[16] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 434.

[17] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص: 169.

على بني هاشم، وعصبية القبائل الموالية لهم على المناوئة، وكانوا يبذلون العطاء لإثارة هذه العصبيات.[18]

وهذا ما أدى إلى شـــيوع الهجاء طوال هذا العصـــر، ومهد لنمو فن النقائض وتطوره وعمل خلفاء بني أمية على تشجيع هذا الفن بغية صرف تفكير الرعية عن السياسة وما يدور في أمور الخلافة، فكانوا في كثير من المواقف يتعمدون إثارة التهاجي بين الشعراء مثلما فعل بشر بن مروان مع الأخطل وجرير –كما أشرنا سابقا– يؤكد لنا هذا الرأي الدكتور عبد المنعم خفاجي بقوله: «ولكننا تجد نوعا آخر طريفا، ابتكره معاوية وجرى الخلفاء بعده على إثره، فقد أحبوا العصـبية بعد أن أخمد الإسـلام نارها، وأرثوا العداوة بين الشـعراء وأثاروا بينهم عاصـفة من التهاجي والإقذاع، حتى يصـرفوا الناس عما أحدثوه من أحداث وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى التي كان لهم فيها مجد عريق».[19]

كما كان لتباين الاتجاهات السـياسـية بين الشـعراء سـببا أيضـا في احتدام التهاجي بينهم، فنجد جرير التميمي يقف في صف قيس التي ناصرت ابن الزبير وسارعت بالبيعة له وعارضـــت الخلافة الأموية، كما نجد الأخطل يقف في صـــف تغلب قبيلته المناصـــرة لبني أمية، المعارضـــــة لقبيلة قيس، فالقبيلتان (قيس وتغلب) كانتا تقفان على طرفي نقيض في التوجه السـياسـي، بينما نجد الفرزدق من قبيلة مجاشـع المناصـرة لبني أمية، «وتصـادف أن قتل مجاشعي الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع، وأيضا تصادف وأن لجأت النوار زوج الفرزدق حين غاضـــبته إلى ابن الزبير فأعانها عليه مما جعل الفرزدق يهجوه».[20]

ب–الأسباب الاجتماعية:

[18] – محمد مصطفى أبو شوارب، أدب العصر الأموي، ص: 118.

[19] – عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، ص: 515.

[20] – شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص: 242.

أما العوامل الاجتماعية فيرجعها شـــوقي ضـــيف إلى الحاجة الاجتماعية الملحّة إلى ضـرب من التسـلية والترفيه خاصـة مجتمع البصـرة وذلك نتيجة للتغير الذي طرأ على حياة العرب الاجتماعية، والتي تتلخص في الانفتاح على الأعاجم والتمدن وكثرة الأموال والغنائم.

"ودائما حينما تنشـــأ المدن تنشـــأ معها أوقات الفراغ"[21]، من هنا وجدنا أهل الحجاز يختارون الغناء كضـــرب من الملاهي يقطعون به أوقات فراغهم، في حين طبيعة المجتمع البدوية المحافظة في العراق وجهتهم وجهة ثانية «ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعال شديدا، حينئذ انبرى الهجاؤون يملأون أوقات الناس بأهاجيهم وسرعان ما تحولوا إلى نقائض مثيرة».[22]

إذن نستنتج أن من بين أسباب ازدهار النقائض في هذا العصر الحاجة إلى التسلية والترفيه، تسـلية الجماعة في البصـرة التي كانت تحشـد جماهيرها في سـوق المربد لتسـمع التهاجي وتتفرج على الشـــعراء وهم يتابرون، ويتبعه في هذا الرأي فوزي محمد أمين «ولا ينبغي أن يذهب بنا الظن بعيدا فنتخيل أن هذه النقائض كانت جدا خالصـــا وأن الخصـــومة بين هؤلاء الشـــعراء تعدت القول إلى الفعل، ولكن الأمر في جملته لا يعدو أن يكون مظهرا من مظاهر التلهية وملء الفراغ، وهي تلهية تتناســـب مع طبيعة هذه القبائل التي ضـــمها مجتمع البصرة».[23]

غير أننا نجد من الباحثين من يرفض هذه الفكرة–ربط النقائض بالتســـلية والترفيه– وعلى رأســـهم خالد محمود عزام[24] ، حيث توقف عند هذه القضـــية مطولا وناقش بإســـهاب موقف شـوقي ضـيف ومن تأثروا به، مبديا رفضـه وعدم قبوله للفكرة ويراها انتقاصـا من قيمة

---

[21] – المرجع نفسه، ص: 241.

[22] – شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص: 241.

[23] – فوزي محمد أمين، في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط:1، 1997م، ص: 145.

[24] – ينظر: رأي خالد محمود عزام، في هذه القضـــية في كتابه "جرير شـــاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية"، ص ص: 41، 53.

النقائض التي احتلت درجة عالية في الأدب وإطاحة بشعرائها الذين يعدون من العظماء، كما أبدى نفوره الشديد من تصوير النقائض على أنها مسرحية تمثل على مسرح المربد وأبطالها هم شعراء النقائض، الذين أتوا من أجل إضحاك جمهور المربد وتسليته، وحاول التدليل على صواب رأيه بمجموعة من البراهين نذكر منها:

- أن تصوير جرير والفرزدق بأنهما مهرجان لا أكثر أمر لا أساس له من الصواب، ولو كان الأمر كذلك لما سمح لهم بالدخول إلى قصر الخلافة ومسامرة الخلفاء ولما احتلا هذه المكانة المتقدمة لدى النقاد، وعدوا من كبار الشعراء وعلى رأس الطبقة الأولى.
- أن الجماهير لم تكن عديمة القيمة ولا حقيرة الثقافة، بل أن مرتادي هذه الأسواق كانوا على درجة عالية من الثقافة ولا سيما الشعرية منها.
- لو كان الأمر مجرد التسلية والإضحاك لما اجتهد الفرزدق وجرير كل هذا الاجتهاد في تكلف الشعر وفي المناظرة، وأن أشعار كل منهما كانت بلغة رصينة قصدا فيها إلى البلاغة قصدا، واتجها نحو البيان اتجاها، لهدف أعظم من كون النقائض مجرد حرفة تسلية.
- أن دعوى هؤلاء باطلة من جهة أخرى وهي أن شعراء النقائض لم يؤلفها لجني المال من الجماهير، ويراها فكرة سطحية لا تستحق المناقشة وأن سبيل المال هو المدح لا الهجاء، وقصيدة واحدة تقال في خليفة من الخلفاء أفضل من ألف قصيدة في النقائض –من الناحية المادية–.
- أن الدكتور شوقي ضيف قاس الأمر على ما يحدث في زمانه من زجل شعبي، حيث ينقسم الناس إلى قسمين، يشجع كل منهم شاعره الذي يقوم بهجاء صاحبه وإضحاك جمهوره على ما يصف به الشاعر الآخر وهذا المقياس لا يتناسب مع النقائض ويجده تعسفي يدل على عجز صاحبه عن الإتيان بسبب منطقي للنقائض.

ويصـــل هذا الباحث من خلال هذه المناقشـــة إلى أن النقائض هي محاولة لإظهار التفوق اللغوي والمهارة الأدبية مع ما يتطلبه هذا الفن من التزام بوحدة البحر الشـعري والقافية «والأهم من ذلك أن النقائض ما هي إلا طريقة فنية لامتحان فحولة شـــعراء المثلث الأموي، جرير، الفرزدق، الأخطل».[25]

لكل باحث اجتهاداته التي يتوصـل إليها، والأدب دائما خاضـع لمعيار النسـبية ونحن نرى أن هذه الإشكالية تحتاج إلى دراسـة أعمق وأوسـع، ومصـطلح التسـلية لا يجب أن يفهم في معناه السطحي البسيط، وإنما المقصود التسلية الفكرية والمتعة الأدبية، كما أن المقصود بالهزل وليس الجد أنها لا تتعدى المبارزة الكلامية ولو كانت جدا لشهرت معها السيوف.

ج-الأسباب العقلية:

ومرجعها التطور الفكري الذي حدث في عصـــر بني مية وســـهم في ازدهار الحياة العقلية وهذا من خلال توفر ثلاثة[26]، عناصر أساسية:

- الفكر العربي الأصيل الذي تتجلى فيه الآداب الجاهلية لغة شعرا وخطابة وقصصا وأمثالا.
- الفكر الإسلامي الذي هو ثمار العقيدة الإسلامية وقد شمل القرآن الكريم والحديث والفقه والتفسير وعلم القراءات وما نشأ من العلوم الإنسانية، كاللغة والنحو والبيان وعلم الحركات والمعاجم والتي كانت في البداية أداة لفهم أغراض الدين وتعاليمه.
- الفكر الدّخيل: وهو هذه العلوم العقلية التي كانت معروفة في الأمصـــار المفتوحة والتي أخذت تغزو الفكر العربي ســـواء عن طريق المجاورة والاختلاط أو بســـبب حركة الترجمة والنقل وفي مقدمتها الطب والكيمياء والفلك.

فقد سـاهم هذا المناخ الفكري الخصـب في ازدهار قصـيدة النقائض واسـتفاد شـعراؤها من مختلف التيارات الفكرية المتواجدة واســـتثمروها في أشـــعارهم فكانوا يبحثون في ماض

---

[25] – خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، ص: 53.

[26] – عمر فاروق الطباع، موقف في الأدب الأموي، دار القلم، بيروت– لبنان، :01، 1991م، ص ص: 28–29.

القبائل العربية ومفاخرها وأيام الانتصـار والهزيمة، كما كانوا يتدبرون في معاني القرآن الكريم وأساليبه واستطاعوا أن يوظفوها بطريقة وبأخرى في أشعارهم كما لا يخفى مظهر تأثرهم بجو الجدول والحوار في النحل السياسية أو بين الفرق الكلامية آنذاك ليجعلوا من النقائض مناظرة وجدال على المســتوى الأدبي "وكل منهم يدرس موضــوعه دراســة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصـمه لينقضـها دليلا دليلا وكأننا أصـبحنا بإزاء مناظرات شـعرية، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحا لها.[27]

رابعا: خصائص شعر النقائص

لقصــيدة النقائض مجموعة من الخصــائص والمميزات التي أعطتها لونا خاصــا، وجعلتها تختلف عن سائر الفنون الشعرية ولا سيما فن الهجاء، ويمكننا تعدادها كما يلي:

1-طول النقيضة:

أن أول ميزة يكن لدارس شـعر النقائض أن يلحظها هي طول القصـيدة، يعود سـبب ذلك إلى تعدد الموضــوعات التي يخوض فيها الشــعراء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لامتزاج العصبية القبلية فيها بالسياسة، ولذلك فهي تحتوي على مادة تاريخية ثرية، إذ يتسلح كل شــاعر بدراســة ماضــي وتاريخ قبيلة خصــمه، والوقوف على أيام الهزيمة والانتصــار ليستعملها كحجة يدحض بها خصمه فكانت نقائض جرير والأخطل من أهم الوثائق التاريخية لمن يريد معرفة تاريخ قيس وتغلب، وتضــمنت أخبارا عن ســياســة الدولة الأموية وما كان يجري بها من أحداث «ومعنى ذلك أن كلا منهما كان يحاول أن يلائم في نقيضــه بين هذا التاريخ الذي يرويه عن القبائل الجاهلية وبين الظروف السياسية الحديثة».[28]

وهذا الامتزاج بين العصـبية القبلية وبين السـياسـة جعل موضـوعات قصـيدة النقائض تتنوع، فهي لا تقتصـر على الهجاء والفخر، بل تخوض في المديح والسـياسـة والغزل بعد أن يمهد الشــاعر لكل ذلك بالوقوف والبكاء على الأطفال ثم وصــف الرحلة والســفر وقد يزيد

---

[27] – شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص: 242.

[28] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص: 172.

بعض الشعراء غرضا آخر استدعته الظروف كقصيدة جرير الرائية* التي بدأها برثاء زوجته كما نجد وصف الخمر عند الأخطل، وبهذا قد تشتمل بعض النقائض على جل فنون الشعر العربي، فالقضية في النقائض لم تعد لمجرد هجاء بسيط عاجل وانتهى، بل أصبح هجاء بالغ التعقيد خاضع لظروف الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية وهذا ما يوضحه لنا الدكتور شوقي ضيف بقوله: «لم يعد الهجاء بيتين أو أبيات قليلة تسب بها قبيلة أخرى، بل أصبح قصائد طويلة تعتمد في طولها على درس عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصومات كما تعتمد على درس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية وكل ذلك يتناول تناول المتناظرين في المسائل العلمية، فكل يحاول أن يقدم حججه وأدلته من التاريخ مستلهما الحياة السياسية في عصره».[29]

ولهذا جمعت النقائض إلى جانب ثرائها الأدبي ثراء تاريخيا وسياسية وعقليا مهما في تاريخنا العربي وأصبحت ديوانا علميا يرجع إليه الباحثون في اللغة والنحو والتاريخ والسياسة والأدب، كما كانت المعلقات ديوان قوم لم يكن لهم علم غيره.

2-التأثر بمعاني وألفاظ القرآن الكريم:

عاش شعراء النقائض في بيئة إسلامية، فكانوا من حفظة كتاب الله عز وجل باستثناء الأخطل الذي كان نصرانيا وقد ظهر تأثرهم بهذا الدين جليا فيما أبدعوه من نقائض شعرية واتخذ صورا وأشكالا متعددة، فكانوا يوظفون ألفاظ القرآن الكريم أو بعضا من معانيه أو أحكامه وشعرائه، وأحيانا بعض صوره وهذا ما يبدو في نقيضه الفرزدق التي يهجوا بها جريرا ويفخر بقومه فيقول (الكامل): [30]

---

* – الرائية: قصيدة طويلة أكثر من ثمانين بيتا بدأها برثاء زوجته حيث يقول:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف المطر، ثم يخوض في هجاء الفرزدق والبعيب، ينظر: مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص ص: 152، 182.

[29] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص ص: 172-173.

[30] – علي فاعور، ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، (د.ط، د.ت)، ص: 489.

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا {27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾.[31]

فيجيبه جرير محاولا قلب هذا المعنى لصالحه:[32]

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا علاك فماله من منقل

كما كان جرير في هجاءه للأخطل كثير الافتخار بالدين الإسلامي منكرا ما عاداه، وكانت هذه أهم وثيقة استغلها جرير ليحط من قيمة الأخطل وقومه على شاكلة قوله:[33] (بحر الكامل):

فعليك جزية معشر لم يشهدوا الله إن محمدا لرسولا

تبعوا الضلالة ناكثين عن الهدى والتغلبي عن القرآن ضلول

يقضي الكتاب على الصليب وأهله ولكل منزل آية تأويل

3-استعمل الهجاء الفاحش والمقذع:

بالرغم من أن شعراء النقائض عاشوا في بيئة إسلامية، وتربوا تربية بدوية محافظة، فإن ذلك لم يمنعهم من أن يذهبوا في هجائهم مذهبا خطيرا، حيث هتكوا أعراض بعضهم البعض، وأباحوا الحرمات وتبادلوا السب والشتم بعبارات صريحة مباشرة، وهذا الهجاء غير محبب أخلاقيا ولا مشروع دينيا، ونجد هذا النوع من السباب يكثر خاصة في نقائض جرير والفرزدق، أما الأخطل بالرغم من نصرانيته فقد كان أكثر احتشاما منهما، وقد كد هذه الحقيقة كثير من الباحثين-خروج الهجاء في النقائض إلى الفحش والإقذاع- وعلى رأسهم

[31] – سورة النازعات، الآيتين 27-28.

[32] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 337.

[33] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير ، ص: 386.

إيليا الحاوي «هو شعر قوم لا زالت تأخذ نفوسهم بمعاني العار والكرامة والشهامة، بالرغم من قيامهم في أحضان الدولة الإسلامية».[34]

كما يلح الباحث خالد محمود عزام على ذلك بتأكيده أن أشعار النقائض لا تشتمل إلا على التفحش، ولا تتضـــمن غير البذاء في معظمها، لأنها تقوم على أحد الأمرين؛ إما ذم الخصـــم وتجريحه وشـــمته والنيل منه ومن قومه، وكل الذي ذكر مداعات الفاحش من القول والبذيء من الكلم والموجع من التشـــبيه والمؤلم من الوصـــف، وإما مدح الذات ونعتها بمال ليس فيها من فضـائل ووصـفها بشـيء من المبالغة في محامد الأمور نسـب كل شـرف إليها ولصق كل منقصة بالخصم.[35]

4-التكرار:

من بين ما يمكن لدراس شـــعر النقائض ملاحظته هو ميل الشـــعراء إلى التكرار في لمعاني والألفاظ، وهو نتيجة طبيعية لطويل النقيض، فبعد أن يسـتنفذ الشـاعر معاني الهجاء يلجأ إلى تكرارها مرة أخرى، فنجد الأخطل يكرر أيام قومه على قيس، ويفعل ذلك الفرزدق بالأيام والرجال، فيفتخر في كل مرة بمجاشـــع وأيامهم، أما جرير فقد رأى النقاد إلحاحه على الفرزدق وتعيره له بمعان معينة هي: قتل الزبير/الفسق/اليقين.

وتعيره الأخطل بـ: الخمر/النصرانية/الجزية.

كما نجد الشعراء يكررون المقاطع ذاتها:

كقول الفرزدق:[36]

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

فيكرره جرير:[37]

---

[34] – إيليا الحاوي، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت–لبنان، د.ط، د.ت، ص: 188.

[35] – خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، ص: 03.

[36] – علي فاغور، ديوان الفرزدق، ص: 491.

[37] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 336.

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويفوق جاهلنا فعال الجهل

5-اعتماد السخرية:

لجأ شعراء النقائض إلى هذا الأسلوب لأنه فيه إطاحة وتشنيعا بالخصم وجعل الناس يضحكون ويسخرون منه، وفي نقائض جرير والفرزدق أمثلة كثيرة كقول جرير ساخرا من الفرزدق[38]: (بحر الكامل)

أمسى الفرزدق للبعيث جنيبة كابن اللبون قرينه المشتال

فانفخ بكيرك يا فرزدق محليا ما زاد قومك ذاك غير خبال

ولد الفرزدق والصعاصع كلهم علج كأن وجوهن مقالى

أو قول الفرزدق لجرير[39]: (المتقارب)

وكان جرير على قومه كبكر ثمود لها الأنكد

رغا رغوة بمناياهم فصاروا رمادا مع الرمدد

وتربق باللؤم أعنقها بأرباق لؤمهم الأتلد

6-توليد المعاني والصور:

تميز شعراء النقائض بخيال خصب، فكانوا يبتكرون الصور ويبالغون ويخترعون الوقائع والحوادث، فاشتغل جرير بفكرة القيم والحدادة عند الفرزدق، وولد منها الكثير من المعاني والصور، فحينما يصفه بانه قين ابن قين، فهذه فكرة استخرج منها معاني متعددة على شاكلة قوله:[40]

تصف السوف وغيركم يعصي بها يا ابن القيون وذاك فعل الصيقل

وقوله:[41]

---

[38] – المرجع نفسه، ص ص: 350-353.

[39] – علي فاغور، ديوان الفرزدق، ص: 158.

[40] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 337.

[41] – المرجع نفسه، ص: 422.

قين ابن قين ألا يسرّ نساءنـــــا بذى نجب أنّا ادعينا لـــــــدارم

هو القين وابن القين لا قين مثله لفطح المساحي أو لجدل الأداهم

7-استخدام أسلوب الموازنة والمقارنة:

وهذه خاصـية بارزة أيضـا في شـعر النقائض خاصـة بين جرير والفرزدق، وذلك من أجل الاحتجاج والتحدي، «وهو أســلوب من الأســاليب التي يلجأ إليها الشــعراء أو الكتاب لتوضــيح الفكرة وتجليتها وإظهارها حتى تزداد قوة وتثبت في ذهن المســتمع أو القارئ، كما يلجأ الشعراء إلى هذا الأسلوب للاحتجاج والدقة في التحدي».[42]

يقول الفرزدق:[43]

أتعدل أحسابا لئاما أدقه بأحسابنا؟ إني إلى الله راجع

موازنا قول جرير:[44]

أتعدل أحساب كراما حماتها بأحسابكم؟ إني إلى الله راجع

خامسا: طبيعة التكوين الفني لقصيدة النقائض

تتفق قصـيدة النقائض مع القصـيدة العربية القديمة في كونها تشـتمل على موضـوعات متعددة، فهي دائما تفتتح بمقدمة طللية يمارس فيها الشعراء طقوسهم التقليدية في البكاء على الديار الخالية والآثار البالية، ثم يمضـي إلى وصـف الراحلة في الصـحراء، أو وصـف بعض الظواهر الطبيعية كالمطر والسحاب، ثم ينتقل إلى الفخر والهجاء، وقد يضـيف الشـاعر مدح الخليفة أو أحد رجال الدولة مثل الحجاج وغيره، وقد نجد وصــف الخمر كما هو الحال عند الأخطل، أو الرثاء كما هو الحال عند جرير، وبذلك تكون قصــيدة النقائض قد احتوت جل أغراض الشعر العربي المعروفة قديما.

---

[42] – مصطفى أبو شوارب، أدب العصر الأموي، دراسات ونصوص، ص: 141.

[43] – علي فاعور، ديوان الفرزدق، ص: 362.

[44] – مهدي محمد ناصر، ديوان جرير، ص: 279.

غير أن الغرضين الأساسيين من بين هذه الأغراض التي كانت عليها النقيضة والذين استنفذا وقت الشعراء وعنوا بهما عناية فائقة، وكانت معاني وأفكار الغرضين هي التي يخصها الشاعر بالدراسة فيضعها نصب عينه ليتولى الرد عليها وينقضها ويهدمها هما: غرض الفخر والهجاء، واعتمدت النقائض في هذين الغرضين على عناصر أساسية منها:

النسب: الذي أصبح في بعض الظروف وعند بعض الناس من المغامز التي يهاجم بها الشعراء خصومهم، حيث يتركون أصولهم إلى غيرها أو يدعون نسبا ليس لهم، وقد كانت المناقضة تتخذ من النسب مادة للتحقير والتشكيك أو نفي الشاعر عن قومه ووضعه في رتبة وضيعة، وكذلك شكل الفخر بالنسب والأنساب ومكانة الشاعر عند قومه ساسا من الأسس التي تدور حوله النقائض سلبا أو إيجابا فاعتمد الشعراء على مادة النسب وجعلوها إحدى ركائز هجائهم على أعدائهم وفخرهم بأنفسهم، ولعل السبب في الاهتمام بالنسب والأنساب هو حضور وعودة العصبية القبلية بصورة مكثفة في هذا العصر، بعد أن كان الإسلام قد أخمدها وأحل محلها العصبية الدينية.

ومنها أيضا **أيام العرب** فكان الشعراء يتخذون منها موضوعا للهجاء والفخر ويتحاورون فيه فكانوا يبحثون في السجلات التاريخية للقبائل ويقفون على أيام الهزيمة متخذين منها وثيقة أساسية للرفع من شان أنفسهم وقبائلهم والحط من خصومهم وقبائلهم.

كذلك شكلت **العادات والتقاليد** أساسا من الأسس التي قام عليها فن النقائض إذ صور لنا الحياة الاجتماعية أحسن تصوير ووصف لنا ما جرت عليه أوضاع الناس ومنها العادات المتبعة، والأعراف والتقاليد التي يحافظ عليها العربي أشد المحافظة، فكانت السيادة والنجدة والكرم، وكان الحلم والوفاء والحزم من الفضائل التي يتجاذبها المتناقضون فيدعي الشاعر لنفسه ولقومه الفضل في ذلك، وكان من نتائج ذلك أن أصبحت النقائض سجلا تاريخيا أحصيت فيه أيام العرب ومآثرها وعاداتها وتقاليدها في الجاهلية والإسلام.

وهي من الناحية الشكلية تتألف من قصيدتين، ومعنى ذلك أن الوحدة في ديوان النقائض سواء بين الأخطل وجرير، أو بين الفرزدق وجرير قصيدتان «وفي العادة ينظم أحد

الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص، وقافية خاصة، ثم يأتي زميله فينقض القصيدة بقصـــيدة أخرى من نفس الوزن والقافية وكأنه يريد أن يثبت تفوقه عليه من حيث الفخر والهجاء، ونراه في أثناء صـــنيعه لنقيضـــه يتعرض لمعاني زميله فيردها أو يرد عليها معنى معنى يحاول أن ينقضها وأن يجعلها أنكاثا من بعد قوة».[45]

كما تدل الروايات على أنها من الناحية الشـــكلية كانت مكتوبة، وهذا ما يبرر طريقة نظمها حيث نجد الشـــاعر يرد على معاني النقيضـــة الأولى معنى معنى «ولا يأتي ذلك من الوجهة العلمية إلا إذا وضـــعت النقيضـــة الأولى تحت بصـــره، ونظر في أفكارها فكرة فكرة، ولعل هذا يحل أشـــكال اتفاق الأســـلوب أحيانا، فبعض الأبيات يكاد يكرر مع اختلاف بسيط».[46]

ومعنى ذلك أن لكل شـاعر كاتب يملي عليه القصـيدة، ثم تحمل مكتوبة إلى الخصـم ليقرأها وينظر فيها، فيتمكن من نقضـــها بهذه الصـــورة الدقيقة–كما أســـفلنا– وقد ورد في الطبقات والشعر والشعراء ما يثبت ذلك، فيروي ابن سلام أن جريرا لما فرغ من هذه النقيضة وأصبح بالمربد قال: «يا بني تميم قيّدوا، قيّدوا أي اكتبوا...».[47]

كما ورد في الشـــعر والشـــعراء أن «أبا عمرو ابن العلاء، كان في حلقة جرير وهو يملي نقيضته في الأخطل...ولا ريب في أن الفرزدق كان يتخذ نفس الطريقة».[48]

---

[45] – شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص: 169.

[46] شوقي ضيف، التطور والتجديد ، ص: 197.

[47] – ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 2/ 104.

[48] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وضبط: مفيد قميحة، ومحمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:02، 2005م، ص: 276.